

قطرة دم الفرد موزعة في الملايين

توق المرأة العربية إلى الحرية جعل خطابها النقدي أسبق على الأدبي

نوري الجراح
شاعر سوري

برائدات الكتابة والتفكير في الثقافة العربية، وخصوصاً في مصر والشام، على المنقلب بين القرنين التاسع عشر والعشرين، خرج من صفوف البرجوازية الوليدة والفئات المقتردة في المجتمع وعبر عن مسألتين أساسيتين ظلتا متلازمتين، نهضة المجتمع للحاق بالتطور ونموذج التطور الغربي، وتحرير المرأة الشرقية من القيود التي رفلت فيها لقرون، وقد تميزت دعوة المرأة للتحرير عبر الخطابين الفكري والأدبي بنضج مبكر عندما اعتبرت جل النساء المثقفات أن موضوع التحرر لا يخص المرأة وحدها، ولكنه يخص العلاقة بينها وبين الرجل، فالرجل نفسه ليس حراً، وبالتالي لا سبيل للمرأة إلى الحرية دون أن يبادر الرجل إلى تحرير ذهنه عن نفسه وعن المرأة. وبالتالي إعادة بناء العلاقة بينهما على أسس فكرية وحقوقية جديدة.

وهكذا، فإن تاريخ الانخراط النسوي في الثقافة العربية يقودنا إلى حقيقة أن

الفكر أسبق على الأدب في مغامرة المرأة العربية مع الكتابة.



أترك افتتاحية هذا العدد لصوت من بين الأصوات النسوية الرائدة في الثقافة العربية، عفيفة صعب كاتبة وصحافية وتربوية لبنانية من جيل الماضي صحافة نسائية انتشرت في بلاد الشام، وتعتبر إلى جانب ماري عجمي صاحبة مجلة "العروس" ونظيرة زين الدين مؤلفة كتاب "السفور والحجاب" وأخريات بارزات في ميدان الكتابة، رائدات الدعوة إلى انخراط المرأة بشكل واسع في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلاد الشام. اشتهرت عفيفة صعب من خلال مجلتها "الخنز" التي صدرت خلال الربع الأول من القرن العشرين، ولعبت دوراً بارزاً في دعوة النساء إلى

المشاركة في إبداء الرأي حول حقوق المرأة وحريتها، والنهضة الاجتماعية، والحريات الفردية والجماعية والتغيير في العالم العربي.

القطوف التي اخترتها هنا في مقام افتتاحية "الجديد" (ظهرت يوم الثلاثاء 25 آب (أغسطس) من العام 1925 في أسبوعية "الميزان" التي أصدرها بدمشق لعامين على التوالي الناقد أحمد شاعر الكرمي، وقد احتلت المقالة الصفحة الأولى من الأسبوعية المذكورة، أي موضع الافتتاحية التي كان الكرمي يكتبها. وقد نقلها الكرمي عن أحد أعداد مجلة "الخنز" الصادرة في شهر تموز من العام نفسه.

في هذه المقالة نقع على قلم نسائي جريء وواضح الفكر، يدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية من دون أن يعني ذلك، قطعاً، قمع ثقافة الناس، ويدعو إلى مساواة المرأة بالرجل، وإلى علاقات متوازنة في الأسرة وفي المجتمع كمدخل حقيقي للأخذ بسنن التطور.

والكاتبة تفرق في بحثها في فكرة القيود بين مسألتين: المدنية والتطور العلمي، وبين الأخلاق. فهي ترى أنه قسطن للعقل بالإطلاق وقضى على النفس بقيود، لأن النفس، كما كانت ترى، في برهة من الزمن لا تزال غير أهل للانعتاق منها، مستشهدة على ذلك بتلك الأفكار القديمة التي ما برحت تصوغ نظام الأخلاق أو تحض على علاقات مجتمعية، وبين الأفراد، ذات سمو روحي. تقطف عفيفة صعب من كونفوشيوس مقولته "ما لا تريد أن يفعل الناس بك، لا تفعله بهم"، وتتساءل هل تقدمت الأخلاق العامة نحو هذه القاعدة خطوة واحدة خلال أربعة وعشرين قرناً؟

هذه المقالة من المقالات والكتابات اللافتة التي تناولت مسألة الحرية، وساهمت في بلورة السؤال المبكر حول النهضة في بلاد الشام والعالم العربي، وهي صادرة عن صوت نسائي نقدي، وفكر متقدم لكاتبة انخرطت مع عدد من الأعلام النسائية الشامية في مواجهة

القوى والمؤسسات والأفكار المهيمنة التي تقيد حريات الجموع والأفراد وخصوصاً المرأة.

إن استدعاء صوت عفيفة صعب من بين الأصوات النسائية الأخرى البارزة في عصرها كنظيرة زين الدين ومباري عجمي، هو أولاً لكونها أقل حظاً من زميلتها في تناول التاريخ والنقدي لأدوار النساء الشاميات في حركة الأفكار والكفاح النسوي لأجل حرية المرأة، وثانياً لأنها كانت صاحبة مشروع منبر صحفي حض النساء على الكتابة والتفكير والتحرر، وثالثاً، وهو الأهم، لما تتميز به هذه المقالة من شجاعة أدبية ووضوح في الطلب وموضوعية في تقليب الفكر في مسألة فكرية إشكالية، وسلاسة لغوية، فضلاً عن مركزية الموضوع التي تتناولها: الحرية.

أخيراً، المقالة التي استلقت منها هذه القطوف نشرت في كل من "الخنز" و"الميزان" تحت عنوان "الحرية".



لوحة جبران هداية

1

تغضبك القيود؟ أمضك عض الأغلال؟ أيستثير نغمك صليل السلاسل، أيغريك الخيال البعيد -المائل لك حرية- هي في عرفك إطلاق يخولك فعل ما تشاء، حين تشاء، كما تشاء؟ تقول: أجل وإلا فما معنى حرية ينادي بها صوت الجيل قاطبة؟ وما معنى احتفالات نقيمتها لذكر الثورات المكتسحة التي انقضت على مشيدات الظلم والاستبداد فغادرتها ردموا؟ وما معنى الارتقاء الذي يدعيه العصر ويؤدي نفيده في أقطار المعمور؟ أجل حركة الفكر دليل حياته وسبيل ارتفاعه. واحتجاجه على الأنظمة والقوانين نافع في كلتا حالتيه: النجاح والفشل فالنجاح غلبة الفكر الحصيف الذي شام نجم الحقيقة خلال سحب الضلال فجلاها عنه، والفشل غلبة نظام صالح أكسبه الاحتجاج والتمحيص نباتاً. وشعب يجعل الحرية بين أهدافه

2

هناك اصطلاحات اتفقت عليها بضعة من أقلام العصر وعدد كبير من السنن قراها وتسمعتها كثيراً: النظم الجائرة، التقاليد الرثة. الاعتقادات الواهية، سخافات العصور الخالية... ترقب أيها القارئ هذه العبارات تجدها حيث طلبتها. غير أن النظم الجائرة سترزول، والتقاليد الرثة سيكتمل بلاها، والاعتقادات الواهية ستتهدم وتنسحق،

القطوف التي اخترتها هنا في مقام افتتاحية «الجديد» (ظهرت يوم الثلاثاء 25 آب (أغسطس) من العام 1925 في أسبوعية «الميزان» التي أصدرها بدمشق لعامين على التوالي الناقد أحمد شاعر الكرمي

والسخافات الباردة لن تحفظ قوامها أمام شمس الفكر.

ولكن لن يتم على هذه ما قدرته لها النواميس حتى تلد بينها وبناتها بخلقونها بشكل جديد وصيغة جديدة ومادة جديدة، ولكنها في المصدر واحد، قيود فالإنسانية الطليقة أفرادها، المباح للإرادات تنفيذ ما يوحي إليها. هوأما

وعارضات أيامها -كما يتمناه بعض المحررين- ليست بالإنسانية التي يريدون هم أنفسهم الانتساب إليها والعيش فيها. ولو تم لهم أن صاغوها على المثال القائم في خيالهم، وحققوا في ترتيبها أحلامهم، لأنكروها وتبرأوا منها. وأي لا نظام يكون نظاماً؟

ولئن شهدنا في مدينة اليوم مجالي الارتفاع العقلي ونادينا بحرية العقل ببندع ما يشاء وينطلق في مجاله الاكتشاف بكل ما أوتي جناحه من قوة، فليس هذا قاصياً حتماً بإجراء الحكم على الأخلاق. فبين المدنية العقلية والمدنية الأخلاقية شوط أبعد بينهما التناسل، فقضى للعقل بالإطلاق، وقضى على النفس بقيود لا تزال هي غير أهل للانعتاق منها. إنك ترى جلياً مبدعات الفكر وأطراد ارتقائه. ولكن منذ أربعمئة والفي عام قال كونفوشيوس الحكيم أية الحياة الذهبية "ما لا تريد أن يفعل الناس بك لا تفعله بهم". فهل تقدمت الأخلاق

العامة نحو هذه القاعدة خطوة واحدة خلال أربعة وعشرين قرناً؟

3

لم توجد القيود عبثاً فهي نتائج تطور اجتماعي تطاولت عليه العصور وبلاؤه الاختيار، ولئن قيل لك إن قطرة دم الفرد موزعة في الملايين من إخوانه البشر من ملايين السنين، وإنه ليس عبثاً ولا بدعاً أن تجد الأجيال السحيقة في البعد ممتزجة في هذا الجيل الذي أنت منه، فقس على هذا القول أن اثر المحرقة التي قدمها الوثني الساذج للإله الشمس مائل بعد ألوف الأعوام في بخور الكنائس وضحايا عرفات في كل عام من القرن العشرين. وقس عليه أيضاً العادات والأزياء والتجارب والطقوس والأساليب، وكثيراً مما نالته الآن، ولكنك لا تحدي أن أتاك ولماذا ترتبط به على شكله دون سواه.

4

نظرة إلى هذا الميراث -ميراث القيود- نرى على التوالي لاحقاً يزحزح سابقاً، وكل بدوره يؤدي وظيفته من إيجاد وحدة منسجمة مؤتلفة متفاهمة ينتظم بها المسير في وجهة واحدة، وتجمع شتى التباين الخلفي والعملية والعقلي برابطة عامة بنضوي القوم تحت لوائها فيظهرون في تباينهم واحداً.

5

كل شيء جديد، في قوم، هو فرقته المتوقعة لفك القيود، هو التأثير المجدد المنتسوف إلى الافضل. هو المنادي بالحرية والإطلاق، لأن القوى الفتية المزمحة بالأماني والرغبات لا تطيق الضغط فما تنفك تعاند الحواجز وتغالباها.